التحولات الاجتماعيــة والثقافية في الأندلس بعد سقوط غرناطة

أ.وفاء عيـــــاد محمد بلم *
طالبة بمرحلة الدكتوراه الأكاديمية الليبية للدراسات العليا.
تاريخ الاستلام 30 / 9/ 2025م تاريخ القبول8 / 1 / 2026م

Social and Cultural Transformations in Andalusia After the Fall of Granada

A. Wafaa Ayad Muhammad Belm *
... .PhD student, Libyan Academy of Graduate Studies

Abstract

This study examines one of the most sensitive periods in the history of al-Andalus: the years following the fall of Granada in 1492, a pivotal turning point in the history of Muslims in the Iberian Peninsula. To shed light on the social and cultural transformations that took place in al-Andalus between the fall of Granada and the expulsion of the Moriscos in 1609, the research adopts a historical-analytical methodology, alongside a comparative and descriptive approach.

The report indicates that mass killings and forced displacement disrupted the demographic balance and led to a significant decline in the Muslim population, highlighting the profound changes that affected the demographic structure of al-Andalus. It also discusses the rise of the Moriscos, who secretly preserved their Islamic customs under harsh conditions, as well as the major impact of the Inquisition and forced conversion laws on the religious identity of Muslims. Culturally, the study documents the sharp decline in Arabic and Islamic education, the closure of educational and religious institutions, and the confiscation of books and manuscripts, all of which resulted in a rupture in scientific and cultural exchange with the Islamic world.

The study also emphasizes how the imposition of Spanish and Christian customs gradually eroded Arab-Islamic identity, leading to shifts in language and culture. Furthermore, the study explores the effects of forced displacement on social relations and the significance of migration in transferring knowledge and skills to North Africa, where Andalusian migrants contributed to enriching cultural, economic, and military life in the region. Importantly, the study does not overlook the element of resistance, addressing Morisco uprisings such as the Alpujarras Revolt, which reflected the Muslims' desire to preserve their identity.

حقوق النشر © للمؤلف/للمؤلفين 2025. ينشر هذا البحث بموجب رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons (CC BY-NC 4.0)

The study concludes that the Islamic Andalusian society disappeared from the Iberian Peninsula as a result of the sweeping social and cultural changes that occurred after the fall of Granada. However, the Maghreb region witnessed a renaissance due to these transformations, fueled by the knowledge and expertise brought by Andalusian migrants. This research underscores the dialectical relationship between political oppression and cultural resistance throughout history, offering a historical framework for understanding issues of identity, minority rights, and cultural diversity in modern societies.

Keywords: Fall of Granada, al-Andalus, social and cultural transformations.

الملخّـــص :

يتناول البحث إحدى المراحل الأكثر حساسية في تاريخ الأندلس: الأعوام التي أعقبت سقوط غرناطة عام 1492م، وهي نقطة تحول مهمة في تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية. ولإلقاء الضوء على التغيرات الاجتماعية والثقافية التي مرت بها الأندلس بين سقوط غرناطة وطرد الموريسكيين عام 1609م ، اعتمدت الدراسة على منهج تاريخي تحليلي إلى جانب منهج مقارن وصفي. وأشار التقرير إلى أن عمليات القتل الجماعي والإبعاد القسري أخلت بالتوازن الديموغرافي وأدت إلى انخفاض كبير في عدد السكان المسلمين، مشيراً إلى التغيرات الهائلة التي أثرت على التركيبة السكانية في الأندلس. كما تناول صعود الموريسكيين الذين حافظوا سراً على عاداتهم الإسلامية في ظل الظروف القاسية، والأثر الكبير الذي تركته محاكم التفتيش وقوانين الإجبار على تغيير الدين على الهوية الدينية للمسلمين. ومن الناحية الثقافية، وثقت الدراسة الانخفاض الحاد في التعليم العربي والإسلامي، وإغلاق المؤسسات التعليمية والدينية، ومصادرة الكتب والرسائل، مما أدى إلى انقطاع في التبادل العلمي والثقافي مع العالم الإسلامي. وأكدت الدراسة - أيضاً - على كيف أن فرض العادات الإسبانية والمسيحية تسبب في تآكل الهوية العربية والإسلامية تدريجياً، مما أدى إلى تغيير في اللغة والثقافة. وتناولت الدراسة أيضاً تأثير الإبعاد القسري على العلاقات الاجتماعية، وأهمية الهجرة في نقل المعرفة والمهارات إلى شمال أفريقيا، حيث ساهم المهاجرون الأندلسيون في إثراء الحياة الثقافية والاقتصادية والعسكرية في المنطقة. وفي النهاية، لم تتجاهل الدراسة عنصر المقاومة، من خلال تناول ثورات

الموريسكيين مثل ثورة الألبوجارا، التي عكست رغبة المسلمين في الحفاظ على هويتهم. وتخلص الدراسة إلى أن المجتمع الأندلسي الإسلامي اختفى من شبه الجزيرة الإيبيرية نتيجة للتغيرات الاجتماعية والثقافية الشاملة التي حدثت في الأندلس بعد سقوط غرناطة. لكن المنطقة المغاربية شهدت نهضة نتيجة لهذه التغيرات، بفضل المعرفة التي اكتسبها المهاجرون الأندلسيون في مختلف المجالات. ويؤكد هذا البحث على العلاقة التناظرية بين القمع السياسي والمقاومة الثقافية على مر التاريخ، ويقدم إطاراً تاريخياً لفهم قضايا الهوية وحقوق الأقليات والتنوع الثقافي في المجتمعات الحديثة.

الكلمات المفتاحيـــة: سقوط غرناطة، الأندلس، التغيرات الاجتماعية والثقافية

مقدمة الدراسة:

نظراً لما توفره الدراسات التاريخية المعاصرة، سواء العربية منها أو الغربية، من معلومات تاريخية قيّمة وتناولها لمجموعة واسعة من القضايا والموضوعات التي تغطي جوانب متعددة من تاريخ الأمم والشعوب، فإنها أداة أساسية لكل باحث في التاريخ. كما أن جميع الباحثين يدركون أهمية الدراسات الشرقية، لا سيما الدراسات المتخصصة، في هذا المجال، نظراً لتميز أساليبها التحليلية، وموضوعيتها، واستخدامها منهجية علمية دقيقة، رغم تنوع لغات الباحثين وأصولهم. وقد اخترنا دراسة كتاب لأحد الباحثين الإسبان المتخصصين في الدراسات الشرقية، لما يُعدّ هذا الكتاب من أهم الدراسات الغربية التي تناولت تاريخ الحضارة الإسلامية في إسبانيا. ويأتي اختيارنا لهذا الكتاب انطلاقاً من أهمية هذه الدراسات الغربية المعاصرة في توفير آفاق معرفية واسعة للباحثين في تاريخ الأندلس.

يُعدّ الأندلس من أهم المراكز التي أثرت تأثيراً عميقاً في الحضارة الإسلامية والمسلمين على مر التاريخ. فقد ساهم أهل الأندلس بإنجازاتهم البارزة في إثراء الحضارة الإسلامية وترسيخ مكانة الإسلام، مما أفاد الإنسانية جمعاء. وبعد سقوط غرناطة، آخر معاقل الإسلام في الأندلس عام 1492م ،اضطر المسلمون إلى الهجرة هرباً من الاضطهاد والإجبار على اعتناق المسيحية، فتوجهوا إلى منطقة المغرب العربي، التي تشمل الجزائر اليوم. واستقر عدد منهم في الجزائر، واندمجوا في المجتمع المحلي، وساهموا بشكل كبير في جميع جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. ومن أبرز الشخصيات التي برزت من بينهم إخوة بربروس، اللذان قادا

البحرية الإسلامية في البحر المتوسط بعد أن أنقذا المسلمين في الأندلس من المحنة. لذا، فإن تأثير الأندلسيين في الجزائر على الاقتصاد والمجتمع والثقافة هو موضوع بحثنا الرئيسي)(1) .

مشكلة الدراسة:

شهدت المنطقة تغييرات اجتماعية وثقافية جذرية مع سقوط غرناطة عام (879هـ/1492 م)، ونهاية الحكم الإسلامي في الأندلس، مما أحدث تحولاً جوهرياً في بنية المجتمع الأندلسي. وانتهى النظام الاجتماعي الذي استند إلى التنوع الديني والثقافي على مر القرون، نتيجة السياسات القمعية التي تعرض لها المسلمون واليهود، مثل الإجبار على اعتناق المسيحية، والاضطهاد الديني، ومصادرة الأملاك.

لم يقتصر هذا التغيير على الجانب العقائدي، بل امتد ليشمل اللغة اليومية والعادات والتقاليد وأساليب الحياة وطرق التعليم. ويتمثل محور البحث في دراسة كيفية تغير البنية الاجتماعية والثقافية في الأندلس خلال هذه الفترة الحاسمة، وتأثير هذه التغييرات على الهوية الثقافية للمسلمين وللمسيحيين الجدد (الموريسكيين).

ومن أهداف الدراسة أيضاً تحليل العلاقات بين السكان المحليين والسلطة الإسبانية الجديدة، وأنواع المقاومة أو عمليات الإدماج القسري في الثقافة المسيحية الإسبانية. ويُعد هذا البحث بالغ الأهمية لأنه يُسلط الضوء على الآثار طويلة الأمد لهذه التغييرات، لا سيما قمع اللغة العربية، وتدهور الفنون والعلوم الإسلامية، وتغير أنماط التعايش الاجتماعي التي ميزت الأندلس على مر القرون. إن دراسة هذه التغييرات دراسة معمقة ضرورية لفهم جوانبها الاجتماعية والثقافية، لأنها شكّلت منعطفاً تاريخياً في تاريخ الأندلس، وأسهمت في تشكيل الهوية الثقافية لإسبانيا المعاصرة.

تساؤلات الدراسة:

1. بعد سقوط غرناطة، ما هي أهم التحولات الاجتماعية التي شهدها المجتمع الأندلسي؟
2. ما هي الآثار التي خلفتها محاكم التفتيش والإجبار على اعتناق المسيحية على الهوية الدينية للمسلمين؟
3. ما هي التغيرات التي طرأت على اللغة والتعليم والعادات والتقاليد في الأندلس بعد سقوط غرناطة؟

4. كيف تمكن الموريسكيون من الحفاظ على هويتهم الثقافية والدينية من خلال مقاومة الاضطهاد؟
5. ما تأثير عمليات النفي والإبعاد القسري على التماسك الاجتماعي في المجتمع الأندلسي؟
6. ما هو أثر هذه التغيرات على الفن والعلوم والإبداع الثقافي في الأندلس؟
7. ما نوع العلاقة التي كانت قائمة بين سكان الأندلس والحكومة الإسبانية الجديدة بعد سقوط غرناطة؟
8. ما الدروس التاريخية التي يمكن استخلاصها من دراسة هذه التغيرات لفهم أفضل للقضايا المعاصرة المتعلقة بالهوية والتعايش؟

أهداف الدراسة:

1. يتناول هذا البحث التحولات الاجتماعية التي شهدها المجتمع الأندلسي بعد سقوط غرناطة عام 1492م.
2. ويناقش تأثير محاكم التفتيش وقوانين الإجبار على تغيير الدين على الهوية الدينية للمسلمين وتكوينهم السكاني.
3. كما يستعرض التغيرات الثقافية في اللغة والتعليم وتقاليد وعادات الأندلس.
4. ويناقش مقاومة الموريسكيين (المسلمين الذين أجبروا على اعتناق المسيحية) لهذه القوانين القمعية على المستويين الاجتماعي والثقافي.
5. ويشرح كيف أسهمت هذه التغيرات في انهيار المجتمع الأندلسي وتدهور حضارته.
6. ويستكشف تأثير عمليات الترحيل والتهجير على العلاقات الاجتماعية بين سكان الأندلس وبقية العالم الإسلامي.
7. كما يتناول تأثير هذه الأحداث على الفن والعلوم والهندسة المعمارية في الأندلس.
8. يستخلص الدروس التاريخية التي يمكن أن تساعدنا في فهم تحديات الهوية والتعايش بين الثقافات في المجتمعات المعاصرة.

أهمية الدراسة:

يُعد هذا البحث ذا أهمية كبيرة لأنه يتناول واحدة من أهم المراحل في تاريخ الأندلس: الأعوام التي أعقبت سقوط غرناطة، والتي كانت بمثابة نهاية السيادة الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية. فمن خلال فهمنا للتغيرات الاجتماعية والثقافية التي حدثت في

الأندلس خلال تلك الفترة، يصبح من الأسهل استيعاب حجم التغيرات التي طرأت على التركيبة السكانية، والأنشطة اليومية، والعلاقات بين مختلف الجماعات الاجتماعية. كما يقدم البحث نموذجًا تاريخيًا للصراع حول الهوية والمقاومة الثقافية، من خلال دراسة سياسات المحاكم التفتيشية والإجبار على اعتناق المسيحية، وتأثيرها في محو الهوية الدينية واللغوية للمسلمين. ويمكن تطبيق هذا النموذج على العديد من القضايا المعاصرة المتعلقة بحقوق الأقليات والتنوع الثقافي.

وبما أن تراجع الفنون والعلوم والهندسة المعمارية بعد السقوط يُظهر التأثير الكبير للتوترات الاجتماعية والسياسية على الإبداع الثقافي، فإن هذا البحث يُسلط الضوء أيضًا على الآثار طويلة الأمد لهذه التغيرات على هذه المجالات في الأندلس. وبذلك، يتجاوز البحث النظرة الضيقة للأحداث من الجانبين السياسي والعسكري، ويقدم رؤية شاملة تُساعد الباحثين ودارسي التاريخ على إعادة تفسير تاريخ الأندلس من منظور اجتماعي وثقافي.

فرضية الدراسة:

سقوط غرناطة كان سبباً رئيسياً في انهيار نظام التعايش الديني السائد، والتغيرات الجذرية في بنية المجتمع الأندلسي.

منهجية الدراسة:

أولاً- منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي الذي يقوم على تتبع الأحداث والوقائع التاريخية وتحليلها للكشف عن طبيعة التحولات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها الأندلس عقب سقوط غرناطة عام 1492م. كما تم الاستعانة بالمنهج الوصفي المقارن لرصد أوجه التغير في البنية الاجتماعية والثقافية ومقارنتها بما كانت عليه قبل السقوط.

ثانياً- أدوات الدراسة:

الوثائق التاريخية مثل المراسلات السجلات المعاهدات خصوصا معاهدة تسليم غرناطة، والنصوص المعاصرة للأحداث.

المراجع الأكاديمية كتب المؤرخين والباحثين المتخصصين في تاريخ الأندلس.

المقالات والدراسات المحكمة التي تناولت التغيرات الاجتماعية والثقافية في تلك الحقبة.

تحليل نصوص أدبية وشعرية تعكس الحالة النفسية والاجتماعية للمجتمع الأندلسي بعد السقوط.

ثالثاً ـ مصادر جمع البيانات وعينة الدراسة:

ـ مصادر أوليـــــة: المخطوطات العربية والإسبانية التي وثقت المرحلة القرارات الملكية الكاثوليكية، النصوص الدينية والفقهية المتعلقة بوضع المسلمين.

ـ مصادر ثانوية: الدراسات التاريخية المعاصرة، كتب تحليل التاريخ الاجتماعي والثقافي، أطروحات أكاديمية.

ـ **عينة الدراسة :** تمثلت في تحليل عدد محدد من الوثائق والمعاهدات والنصوص الأدبية المختارة بحيث تغطي الفترة الزمنية الممتدة من سقوط غرناطة حتى نهاية القرن السادس عشر لتمثل شريحة كافية لفهم التحولات الاجتماعية والثقافية بشكل متوازن

رابعاً ـ أساليب التحليل:

التحليل التاريخي النقدي للتحقق من صحة الوثائق ومصداقية الروايات.

التحليل الاجتماعي والثقافي لتفسير التغيرات في البنية الاجتماعية الهجرة التحولات الديموغرافية، وضع الموريسكيين).

التحليل المقارن للمقارنة بين حال المجتمع الأندلسي قبل وبعد السقوط.

تحليل المضمون لفهم الأفكار والقيم الجديدة التي ظهرت في النصوص الأدبية والدينية في تلك المرحلة.

خامساً ـ حدود الدراسة:

الحدود الزمنية: تركز الدراسة على الفترة من سقوط غرناطة (1492م) حتى طرد الموريسكيين النهائي (1609م) باعتبارها المرحلة التي شهدت التحولات الأعمق.

الحدود المكانية تقتصر الدراسة على مملكة غرناطة السابقة ومناطق استقرار المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد السقوط.

الحدود الموضوعية: تنحصر الدراسة في التحولات الاجتماعية الهياكل الأسرية، الطبقات الاجتماعية، العلاقات بين المسلمين والمسيحيين والتحولات الثقافية (اللغة الدين، الفنون التعليم، ولا تتناول بالتفصيل الجوانب السياسية والعسكرية إلا بالقدر الذي يخدم التحليل الاجتماعي والثقافي.

الإطار النظري

المبحث الأول ـ التحولات الاجتماعية بعد سقوط غرناطة:

المطلب الأول ـ التغير في البنية السكانية للأندلسيين:

استفادت الأندلس من موقعها الاستراتيجي المهم كصلة وصل بين قارتي أفريقيا وأوروبا، مما جعلها وجهةً جذابة لمجموعة واسعة من الجماعات العرقية والدينية. وتضمنت تركيبتها السكانية منذ الغزو الإسلامي مجموعة متنوعة من الجماعات، من بينها القبائل العربية التي ساهمت بشكل كبير في تاريخ المنطقة من خلال اندماجها في المجتمع الأندلسي بعد الفتح. إضافة إلى العرب، كانت هناك جماعات أخرى في الحضارة الأندلسية، مثل البربر، والمولادي (المسلمون المرتدون عن المسيحية)، والمجتمعات المسيحية واليهودية. من تأسيس الدولة الأموية وحتى الفترة محل الدراسة، أثرت هذه الجماعات على الهيكل الاجتماعي والاقتصادي لشرق الأندلس. أما تدهور الوضع الاجتماعي للجماعات التي كانت تشكل الحضارة الأندلسية بعد سقوط الخلافة الأموية، فقد كان سمة بارزة في القرنين الخامس والحادي عشر الميلاديين. استقر البربر في جنوب شرق شبه الجزيرة الإيبيرية، بينما حكم العرب غرب الأندلس، بينما هاجر السلاف إلى شرق الأندلس. كانت دولتا بني هود وبني مردانش من أبرز الشخصيات التاريخية التي لعبت دورًا هامًا في أحداث المنطقة خلال فترتي حكم المرابطين والموحدين، على الرغم من أن الجماعات السلافية والمولادية كانت الأكثر انتشارًا وكانت لها نفوذ في شرق الأندلس. من المفيد دراسة كل من هذه الجماعات وتوضيح دورها في المجتمع الأندلسي خلال فترتي حكم المرابطين والموحدين. العرب: كان العنصر العربي هو الأكثر انتشارًا بين الجماعات العرقية التي شكلت المجتمع الأندلسي بعد الفتح. وصل العرب إلى الأندلس في موج8ات متتالية كجنود فاتحين. حدثت أول غارة عربية كبيرة على الأندلس عام 712 ميلادي (93 هجري)، عندما عبر موسى بن نصير مع جيش يبلغ 8000 مقاتل، معظمهم من العرب (مع اختلاف في العدد الدقيق). كانوا في الغالب من رعايا الدولة الأموية من قبيلتي اليمن وقيس. استقروا في مناطق مثل سرقسطة وإشبيلية والجيزة الخضراء. بعد الفتح الإسلامي، كان العرب من أوائل المستوطنين في الأندلس. استقر الكثير منهم في المدن الكبرى، حيث وجدوا الراحة والازدهار في ثروة المنطقة من

الموارد والأراضي. وفقًا لما ذكره الهمداني، ينحدر سكان مدينة سيلب من قبائل عربية من اليمن.

وقد مثلت القبائل العربية جزءًا كبيرًا من المجتمع الأندلسي، واستمرت الهجرة العربية دون انقطاع. ومن بين القبائل العربية البارزة التي استقرت في شرق الأندلس، قبائل تميم، ومخزوم، وكنانة، وقيس، وعيلان، وكِلاب، بالإضافة إلى قبائل من فروع مذحج وقيس. تُعد مدينة فالنسيا، حيث استقرت قبيلة معافر اليمنية (ومنها بني جهاف)، من أهم المناطق التي استقرت فيها القبائل العربية في شرق الأندلس. فقد مارسوا الزراعة فزرعوا الأشجار، وشغلوا مناصب قضائية، وكان لهم نفوذ كبير. واستقرت في فالنسيا أيضًا قبائل أخرى من فروع قيس، مثل قبيلة بني واجب القوية والمهمة. واستقرت قبيلة بني مفوز في شاطبة، كما استقر في فالنسيا بعض من قبيلة هوازن من فروع مذحج. واستقرت قبيلة هذيل، التي تنحدر من مضر بن إياس بن مضر، في منطقة تودمير بمدينة أوريهويلا(2)

أما قبيلة بني هود فكانت معروفة في شرق الأندلس، بينما انتشرت قبيلة تميم في جميع أنحاء المنطقة. وانتشرت قبيلة بني مخزوم، من نسل يعقث بن مرة، بما في ذلك بني ميمون، في جزيرة مايوركا. واستقرت فروع متعددة من قبيلة قُضاعة في منطقة الجزيرة، التي كانت مركزًا رئيسيًا لهم في الأندلس. وكانت مورسيا موطنًا لقبائل حضرموت. وتركز توزيع القبائل العربية جغرافيا في المناطق الغنية بالموارد، مثل الأنهار والمحاصيل الزراعية والأراضي الخصبة، بالإضافة إلى مراكز التجارة المهمة. وكان العرب المذريون واليمنيون الفروع الرئيسية لهذه القبائل. وكان العرب اليمنيون يشكلون أغلبية السكان في شرق الأندلس، وكان بعضهم يعيش في المدن، ليصبحوا فيما بعد علماء دين ومدرسين(3) .

أسباب الهجرة الأندلسية:

تأثرت موجات الهجرة الأندلسية المتعددة نحو المغرب الإسلامي عامةً والمغرب الأوسط خاصةً، سلبيةً بالتدهور المتزايد في أوضاع الأندلس، نتيجة سوء معاملة الحكومة الإسبانية للمسلمين. ساهمت أسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية عديدة في ذلك. وكان الوضع السياسي السائد في الأندلس آنذاك، والذي شمل ما يلي، من أهم

أسباب الهجرة الأندلسية:

تدهـــور الوضـع السياسـي فـي الأنـدلس، لا سـيما بعـد سـقوط دولـة الموحـدين وهزيمتهم في معركـة وقاصـة عـام 609 هـ/1212 م، ممـا مهـد الطريـق أمـام حملـة الاسترداد المسيحية من الشمال. وبعد وفاة ابن هود، زعيم الثـورة فـي إمـارة مورسـيّا ضد الموحدين عام 620 هـ/1220 م، سقطت العديد من المدن الأندلسية المهمة في يد الإسبان. زادت هذه الأحداث من معاناة المسلمين وتفرّقهم، ثم بدأت المـدن والحصـون الأندلسـية الكبـرى تسـقط واحـدة تلـو الأخـــرى، مسـتغلين الإسـبان هـذه الانقسـامات الداخلية، و بعد سقوط قرطبة عام 1236 م، سقطت فالنسيا ومورسـيّا وإشـبيلية عـامي 1239م و1243 م و1248م على التوالي ، ولم يبقَ من الأندلس تحت الحكم الإسلامي سوى إمارة غرناطة ، وفي عام 874 هـ/1469 م، تزوّج فرديناند ملـك أراغـون مـن ابن عمه إيزابيلا ملكة قشتالة في مدينة وادي كارول، ما أدّى إلى توحيد إسبانيا ، وبعد هذا الزواج، قويت شوكة المسيحيين، وأطلقوا حملات عسكرية متتاليـة علـى أراضـي غرناطة، مستغلين ضعف الحكـم الإسـلامي نتيجـة الصـراعات الداخليـة، وبـدعم مـن الكنيسة. وسقطت غرناطة في 12 محرم 897 هـ/25 نـوفمبر 1491 م، بعـد معاهـدة استسلام، وضع فيها زعماء غرناطة نهاية للحكم الإسلامي فيها، وذلك بعد حصار دام سبعة أشهر، دافع خلالها أهلها عن أنفسهم ضد جيش يبلغ قوامه 80 ألـف جنـدي. بعـد أن سلّم السلطان أبو عبـد الله مدينـة غرنـاطـة إلـى الملكـة إيـزابيلا والملـك فرديناند، . استولى عليها الإسبان في الثاني من يناير عام 1492م وبعد سـنوات قليلـة مـن سـقوط غرناطـة، انتهكـت بنـود المعاهـدة، وفـي عـام 1499 م، أجبـرت الحكومـة الإسـبانية المسلمين على اعتناق المسيحية. ومع إنشاء محكمة التفتيش الديني لتنفيذ أوامر الملك، تدهورت أوضاع المسلمين، وكان هدفها تحويـل المسـلمين إلـى المسـيحية، وكـان مـن يعارض ذلك يتعرض لعقوبات قاسية، ونتيجـة لـذلك، اسـتهدف المسـيحيون المسـلمين وأذلوهم، وانتهاكوا مقدساتهم. ففرض عليهم ضرائب باهظة، وحُظر عليهم أداء الأذان في المسـاجد. وهكـذا تحولـت إسـبانيا الإسـلامية (الأنـدلس) إلـى أرضٍ فقـدت هويتهـا الدينية.(4)

وللتخلص من عقوبة محاكم التفتيش وإدانته، كان المسلمون يخفون شـعائرهم الدينيـة ويتظاهرون علنًا بأنهم من المسيحيين ، وبعد إعلان الملكة إيـزابيلا فـي عـام1502م ، بشـأن تحويـل الأندلسـيين إلـى المسـيحية، أجبـرت محـاكم التفتـيش حـوالي 500 ألـف

شخص في الأندلس على اعتناق المسيحية. وفي عام 1508م ،أصدر الملك فرديناند مرسومًا يحظر جميع التقاليد والعادات العربية والإسلامية، بما في ذلك استخدام اللغة العربية، وممارسة الشعائر الدينية الإسلامية، وارتداء الملابس العربية التقليدية. استمرت إسبانيا في إصدار هذه الأوامر لمدة قرن. ولإقناع المسلمين بالانتقال إلى المسيحية، اضطهدتهم السلطات الإسبانية لأكثر من قرن (1493-1610م)، وفقًا لأحمد توفيق المدني. خلال هذه الفترة، استخدموا أساليب تعذيب وإذلال أكثر وحشية. وأدى سوء الأحوال في الأندلس إلى انتشار العداء والغضب. وقرر الملوك الإسبان طرد المسلمين من البلاد بعد فشل جميع محاولاتهم في تحويلهم إلى المسيحية . وفي 22 سبتمبر 1609م، نُشر القرار النهائي لطرد جميع المسلمين من الأندلس، وهي ضربة قاسية زادت من معاناتهم. حتى عام 1616م، كانت السفن الإسبانية تنقلهم إلى الساحل الأفريقي. أسهم إصدار العديد من الفتاوى في المغرب والأندلس حول موضوع الهجرة في زيادة عدد المهاجرين، فعلى سبيل المثال، بعد نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس وتحول المنطقة بأكملها إلى المسيحية، أصدر الوَنْشَرِيسي فتاوى تنص على وجوب مغادرة الأراضي التي يحكمها غير المسلمون. كما لعب دور خير الدين بربروس في إنقاذ آلاف المسلمين من الأندلس ونقلهم إلى الساحل المغربي، بالإضافة إلى انتصارات العثمانيين على الإسبان على طول الساحل المتوسطي، دورًا مهمًا في هجرة سكان الأندلس إلى المغرب. كما لعبت العوامل الجغرافية دورًا في هجرة سكان الأندلس إلى وسط المغرب، بسبب التشابه المناخي وسهولة التواصل بين المدن المغربية والأندلسية، وخاصة المدن الساحلية، مما جذب سكان الأندلس. وكان من بين الأسباب الرئيسية الأخرى سهولة اندماجهم مع السكان الأصليين في المغرب، وذلك بفضل أوجه التشابه في الثقافة والمعتقدات الدينية.(5)

المطلب الثانـــــي ـ التحولات في البنية الاجتماعية والعلاقات الإنسانية:

يُعدّ التغيير ظاهرة اجتماعية تؤثر في الحياة الاجتماعية وفي الكائنات الحية وغير الحية على جميع مستويات الوجود. مرّت المجتمعات البشرية بمراحل تطورية عديدة منذ فجر التاريخ وحتى اليوم، وشهدت أحداثًا وتغيرات جذرية ومتنوعة، تختلف باختلاف الزمان والمكان والثقافة. كحقيقة تاريخية، يؤثر التغيير في جميع جوانب الحياة الاجتماعية، بما في ذلك الأنظمة والعلاقات الاجتماعية التي تتفاعل وتتكامل. كل نوع من أنواع التغيير هو حقيقة بيولوجية وتاريخية واجتماعية ووجودية، وهو

أمر بديهي في جميع المجتمعات البشرية. يُطلق على القدرة على التفاعل مع الواقع (أو الكون) بشكل مباشر أو غير مباشر اسم "الوجود". في علم الوجود، يُعتبر مفهوم الوجود هذا من أهم المشكلات الفلسفية. لذلك، يشير مصطلح "التغيير" في الفلسفة إلى أي فعل أو عمل. الحركة جزء لا يتجزأ من الفعل، والتغيير عنصر أساسي في كل حركة لطالما شكل موضوع التغيير والاستقرار في الوجود - هل الوجود قابل للتغيير أم ثابت؟ - محور نقاشات فلسفية استمرت لعقود. بعد أن وصل هذا النقاش إلى مرحلة الإشباع المعرفي، تحوّل الحديث الفلسفي إلى دور الإنسان كفاعل تغيير، والقوة الحقيقية وراء التغيير، ومحاولة فهم جوهر التغيير. سنناقش هذا الموضوع من منظور تاريخي، مع عرض آراء العديد من المفكرين. سنستعرض آراء الفلاسفة الذين اعتبروا الوجود ثابتًا، والذين اعتبروه قابلًا للتغيير، والذين جمعوا بين هذين الرأيين، مشيرين إلى أن التغيير نسبي أو أن الوجود ثابت ومتغير في آن واحد. سنناقش أيضًا دور الإنسان كفاعل تغيير في المجتمع. أخيرًا، سنتناول بعض المفكرين الاجتماعيين، وأساليبهم في دراسة التغيير الاجتماعي، وكيف أصبح موضوع التغيير مصدر خلاف بين النظرة التقليدية والحديثة(6) .

دور المجتمع الأندلسي نحن بصدد مشروع أثري حالياً بعنوان "مدينة إلبيرة"، والذي دفعنا إلى إعادة النظر في مكانة المدينة في المجتمع الأندلسي. هذه مسألة جوهرية تتطلب معالجة هذا الموضوع تحديداً: فدراسة هذه البنى المعمارية وحدها لا تكفي لدراسة البنية العمرانية في الأندلس. بل يجب أن تشمل الدراسة الغاية وأهمية المجتمع التجاري-الرأسمالي في الأندلس. بدون فهم هذه المسألة في عمقها وشموليتها، لا يمكننا تكوين صورة واضحة عن الماضي. لذا، نبدأ بدراسة تطور المجتمع التجاري-الرأسمالي بشكل عام وفي سياق الأندلس على وجه الخصوص.

لا تزال العديد من التساؤلات المطروحة في الدراسات الرائدة، كدراسات بيير غيشارد، أحد أهم المؤرخين في هذا المجال، دون إجابة، رغم وفرة الدراسات التي نُشرت في السنوات الأخيرة. رغم تأثر كتاب غيشارد بالبنائية، فقد وضع كتابه "الأندلس" بعض المفاهيم الأساسية لفهم البنية الاجتماعية في شبه الجزيرة الإيبيرية خلال العصور الوسطى. ومن الواضح أن العالم الأندلسي يختلف كثيراً عن الغرب المسيحي. وهذا يعني، كما قال تشالميتا، أنه لا يمكن الحديث عن الإقطاع في الأندلس. وكانت قضية صحة المفهوم السوفيتي الرسمي لتسلسل أنظمة الإنتاج (الإشتراكية

البدائيـة، الـرق، الإقطـاع، الرأسـمالية، الإشـتراكية، الشـيوعية) محـل نقـاش واسـع. وجاءت الإجابة خارج نطاق المنهج السوفيتي، لكن كانت هناك بعض التحركات.(7)

نظراً لأن الأراضي الزراعيـة فـي غرناطـة فـي عهد الدولـة النزاريـة كانـت عـادةً مُروية، فمن المفيد دراسة تاريخ هذا النوع من الزراعـة وأهميتـه. تنـاول المؤرخـون موضوع الري الاصطناعي وتأثيراته الاجتماعية في العقود الأخيرة. وكان المؤرخون والباحثون المحليون مهتمين بهذا الموضوع، في القرن التاسع عشر. ركزت الدراسات على فالنسيا وغرناطـة، وهمـا مـن أهـم المنـاطق التـي شـهدت أطـول فتـرة اسـتيطان إسلامي (حتى منتصف القرن الثالث عشر فـي فالنسيا، وحتـى نهايـة القـرن الخـامس عشر فـي غرناطـة). ويُعدّ إنشـاء هـذه الأراضـي المُرويـة مـن أكثـر جوانـب البحـث التاريخي إثارة للاهتمام. نسب ويتفوغل اختـراع الـري للدولـة فـي كتابـه "الاسـتبداد الشرقي: دراسة مقارنة للسلطة المطلقة" (1957م) ، الذي تناول بلاد الشام والأنـدلس وأمريكا. وفقاً لتومس ف. جليك في كتابه "الـري والمجتمـع فـي فالنسيا فـي العصـور الوسطى"، تدخلت الدولة في حالات معينة من الظروف المناخيـة والنهريـة، كالأقـاليم الصحراوية وشبه الصحراوية ذات الأنهار الكبيرة التي تحتاج إلى تنظيم، مثل بلاد ما بين النهرين ومصر. وأكد جليك على دور القاعدة الاجتماعية في إنشاء أنظمة الـري، مثـل حـل النزاعـات المحليـة بـين المـزارعين. وأشـار إلـى أن الأراضـي الزراعيـة الرومانية لـم تكـن مُرويـة إلا فـي المنـاطق ذات المنـاخ الجـاف، كـالمغرب والنميـديا، ويرجع انتشار الري في شبه الجزيرة الإيبيرية إلى العصر الإسلامي.

وكانت طرق جمع ونقـل وتخـزين الميـاه موجهـة أساسـاً للاسـتخدام الحضـري ولـيس لزيادة الإنتاج الزراعي. كان بحث أندرو م. واتسون حـول انتقـال الزراعـة الإسـلامية من الشرق إلى الغرب، والذي شمل تحديد أنواع النباتات من المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية، له تأثير كبير في عـام 1983م. أشـار واتسـون لأول مـرة إلـى أن إدخـال الري في العصر الإسلامي كان مرتبطاً بحاجة بعض المحاصيل الأجنبيـة التـي جلبهـا العرب إلى المناطق ذات المناخ المتوسطي، الـذي يتميـز بالجفـاف فـي الصـيف. وفـي دراسـتهم عـام 1981 م عـن شـرق الأنـدلس، ربـط بييـر غيشـارد وأندريـه بازانيـا المجتمعات الأندلسية بتطور الزراعة المروية. 15. تأسست العديد من هذه القرى على يد جماعات قبلية عربية أو بربرية، وكانت تتميز بإدارة مستقلة للأراضـي الزراعيـة، حتى قبل الغزو المسيحي. لذا، يمكن اعتبار الري حلاً محلياً نفذته هذه المجتمعات بدلاً

من الحكومة. كان ميغيل بارسيلو من أوائل من طرحوا فكرة أن الري كان من إنجازات المجتمعات المحلية، التي كانت تتميز في البداية بطابعها القبلي. ويعتقد بارسيلو أن استقلال هذه المجتمعات في إدارة أراضيها الزراعية ساهم في تنوع المحاصيل، حتى تلك التي يصعب بيعها أو تخزينها، نظراً لعدم وجود نظام إقطاعي يفرض ضرائب أو قيوداً على الزراعة.

ويؤكد المؤلف أن هذا أدّى إلى زراعة أنواع متنوعة من المحاصيل، بعضها يصعب بيعه أو تخزينه. تناول أنطونيو مالبيكا مؤخراً العلاقة بين موقع القرى ونوع الزراعة فيها. بدأ سكان هذه القرى بالانتقال إلى مواقع أكثر سهولة في الوصول إليها وأكثر ملاءمة للزراعة المروية، وذلك منذ العصر الخلائفي (القرن العاشر). وتبرز التضاريس الجغرافية لهذه القرى، التي تقع أعلى القرى الأصلية قليلاً، رغبة سكانها في الحصول على أراضٍ زراعية مروية. كما يشير مالبيكا، استناداً إلى كتب الزراعة، إلى أن توسع الري ساهم في زيادة الإنتاج الزراعي، الذي كان يتم تخزينه بطرق متنوعة.(8)

المبحث الثانـــــي ـ التحولات الثقافية بعد سقوط غرناطة :

المطلب الأول ـ التغيرات في الحياة الدينية والتعليمية

مراحل التعليم: كان التعليم في الأندلس خلال العصر الأموي مقسماً إلى مرحلتين. المرحلة الأولى هي التعليم الأساسي (ما يُعرف اليوم بالتعليم الابتدائي)، والمرحلة الثانية هي التعليم العالي. يقول ابن خلدون في وصفه لطرق التعليم في الأندلس: "استفاد أهل الأندلس من تنوع أساليب تعليمهم، فتميزوا بالعلم والبلاغة، خاصة بعد إكمال المرحلة الابتدائية".

بدأت المرحلة الأولى من التعليم مع الأطفال الصغار واستمرت حتى بلوغهم سن الرشد. كان حفظ القرآن الكريم هو المحور الرئيسي في هذه المرحلة، إلى جانب دراسة اللغة العربية، وحفظ الشعر، وخط الكتابة، التي كانت تُعتبر أمورًا قيّمة. ركز أهل الأندلس في البداية على حفظ القرآن، لكنهم لم يكتفوا بذلك، بل شمل تعليمهم أيضًا حفظ الشعر، ودراسة اللغة العربية، وتنمية مهارات الكتابة. وقد ساهم ذلك في إتقانهم اللغة العربية.

لأن هذه العلوم كانت أساسية في اكتساب المعرفة في مختلف المجالات وفهم العالم، بدأ أهل الأندلس بتعليم أبنائهم هذه العلوم. المرحلة الثانية: كانت متاحة لمن بلغ سن

الرشد، واستخدمت نفس منهجية المرحلة السابقة، مع مزيد من العمق والشمول. ركز بعض الطلاب على تخصص واحد، متجاهلين باقي العلوم. يلاحظ أسين بالاسيوس أن الأندلس خلال العصر الأموي تميزت بروح من الحرية في التعليم، حيث كان كل طالب حرًا في اختيار معلمه، بل ويمكنه الانتقال إلى معلم آخر في نفس المنطقة أو في منطقة أخرى. ثالثاً: مناهج الدراسة: من أبرز سمات مناهج الدراسة في الأندلس أنها استندت إلى المناهج العلمية في العالم الإسلامي الشرقي، نتيجة للتواصل العلمي والثقافي بين الأندلس والشرق. وقد شكلت المعارف والأسس التي اكتسبها الأندلسيون من هذه الرحلات أساسًا للمناهج الدراسية، وللنهضة العلمية والثقافية التي شهدتها الأندلس في مختلف المجالات.

كان منهج أهل الأندلس في دراسة القرآن الكريم في بداياته يركز على تعليم وحفظ القرآن الكريم، وذلك لأسباب روحانية بالدرجة الأولى، ولخوفهم من أن يتعرض الطفل في صغره لأمور تشتت انتباهه وتعيق تعلّمه. وبما أن الطفل في هذه المرحلة العمرية يكون أكثر استجابة للتعلم، فقد حرص الآباء على تعليم القرآن له في هذه الفترة. لاحقًا، انتشرت مؤلفات علماء الشرق ودراستهم في الأندلس، واعتمد عليها أهل الأندلس اعتمادًا كبيرًا. ومن أهم هذه المؤلفات كتاب "معاني القرآن" للزجاج، ومؤلفات أبي عبيد القاسم بن سلام (ت. 224هـ)، ومنها "فضائل القرآن" و"السبع القراءات" لأبي بكر بن مجاهد. ويشمل تفسير القرآن نوعين رئيسيين: التفسير اللغوي الذي يهتم بالكلمات والجمل ومعانيها، والتفسير الفقهي الذي يبحث في معاني الآيات والسياق التاريخي لها، والحكم الشرعي المستنبط منها، وتفسير الآيات المتشابهة. وكما ذكرنا، فقد تأثر تفسير القرآن في الأندلس في بداياته بالتفسير الشرقي.

وكان تفسير ابن جرير الطبري، بالإضافة إلى تفسيرات أخرى نسبت لابن عباس والحسن البصري وغيرهما، محور الدراسة والتعليم في الأندلس.(9)

وكان اهتمام طلاب الأندلس بالفقه الإسلامي أكبر من اهتمامهم بالعلوم الأخرى، ربما لأن دراسة الفقه كانت تتيح لهم شغل مناصب مرموقة في الدولة، سواء كانت دينية أو دنيوية، كالقضاة والكاتبين والخطباء والمستشارين الشرعيين وغيرهم من ذوي الاختصاص. تميز الأندلس باعتناقه المذهب الفقهي للإمام مالك بن أنس، الذي انتشرت آراؤه الفقهية في الأندلس على يد أولئك العلماء الذين سافروا إلى الشرق.

ظهر هذا المذهب الفقهي كالمصدر الرئيسي، إن لم يكن الوحيد، للمعلومات في الدراسات القانونية منذ أوائل القرن الثالث الهجري.

ونتيجة لذلك، ركز سكان الأندلس على دراسة كتاب "الموطأ" للإمام مالك، واقتصروا بحوثهم ودراساتهم على المؤلفات الشرقية في الفقه المالكي، من أبرزها كتاب "الزاهر في الفقه" لأبي إسحاق بن شعبان، وكتاب "الإنباء في اختلاف الأئمة" لابن المنذر النيسابوري، وشرح "المختصر" للأبهر، وكتاب "الروضة" لابن المواز. وفي وقت لاحق، ألف الباحثون في الأندلس كتبًا خاصة بهم في فقه مالك بن أنس، من أشهرها "المستخرج" للعتبي و"الوضيحة" لابن حبيب، وقد شاعت هذه المؤلفات وانتشرت بين الناس، وحفظها الكثيرون عن ظهر قلب.(10)

كان التعايش السلمي بين مختلف الأديان من أبرز سمات التأثير الديني والثقافي والاقتصادي للمسلمين في الأندلس. فقد عاشت الأديان السماوية الثلاثة - الإسلام والمسيحية واليهودية - في سلام منذ فتح الأندلس، رغم بعض الصراعات المتفرقة والمؤقتة بين أتباعها. وبعد الاضطهاد الذي عانته اليهودية في عهد الفتح الوستغوثي، انتقلت إلى مرحلة من السلام والتعايش. وكان دعم اليهود للمسلمين في فتح الأندلس عاملاً إضافياً في تعزيز هذا التعايش.

وتشهد وثائق الغنزا على الحرية الدينية التي كان يتمتع بها اليهود، لا سيما حرية تأليف المؤلفات الدينية والذهاب إلى القدس، على عكس بعض التصورات المغلوطة. فقد كتب يهودا هليفي، المعروف بأبي الحسن في النصوص العربية، كتاباً عن اليهودية وعلاقتها بالأديان الأخرى. ويكمن أهمية وثائق الغنزا في المعلومات القيّمة التي توضح شبكات الاتصال الواسعة التي ربطت اليهود في الشرق والغرب، وخاصة في منطقة البحر الأبيض المتوسط. وتسلط هذه الوثائق الضوء على المراكز الاقتصادية، ونمط الحياة، والوضع الاجتماعي لليهود في الأندلس. استنتج غويتين من وثائق الغنزا أن معظم، إن لم يكن جميع، قادة السفن كانوا مسلمين، وأن الأموال والبضائع كانت تُسَلَّم إلى تجار مسلمين كانوا يسافرون مع القوافل والسفن. وأضاف أن اليهود كانوا يُهنئون شركائهم المسلمين في الأعياد الدينية ويزارونهم في منازلهم. وتقول إحدى وثائق الغنزا: "إذا كانت هناك قافلة، ومعها مسلمون أمناء، فسلّموا إليهم البضائع". حصل اليهود في عهد المرابطين والموحدين على امتيازات لم يحصلوا عليها منذ زمن طويل. وبفضل هذه الحرية الدينية، لعب إسحاق الفاسي، وهو عالم

يهودي، دوراً بارزاً في النهضة الدينية لليهود في الأندلس، عندما خلف موسى بن عزرا في منصب رئيس الحاخامات في غرناطة في بداية القرن السادس الهجري. وشهدت مدن أندلسية أخرى، مثل قرطبة وغرناطة، تطورات مماثلة. ومع ازدياد عدد المساجد في الأندلس، ازداد وعي الناس بها.(11)

المطلب الثاني ـ التأثير على الفنون والعمارة والعادات:

البعثات الإسبانية والهجرة والاستكشافات الجغرافية

أثرت البعثات والاستكشافات الإسبانية في أمريكا الجنوبية والغربية في القرن السادس عشر في نشر التأثيرات الإسلامية في الولايات المتحدة، حيث قادها شخصيات مثل خوان بونسي دي ليون الذي اكتشف فلوريدا عام 1513م، وفرانسيسكو بيزارو الذي استكشف الساحل الغربي جنوبًا عام 1524م، وألفر نونيز كابيزا دي فاكا الذي اكتشف أجزاء من تكساس ونيو مكسيكو عام 1528، وفرانسيسكو فاسكيز دي كورادو الذي استكشف وادي الكولورادو وجنوب غرب الولايات المتحدة بين عامي 1540 و1542م، وهيرناندو دي سوتو الذي استكشف نهر ميسيسيبي عام 1541م، وخوان رودريغيز كابريلو الذي زار ساحل كاليفورنيا عام 1542م، لا تزال سان دييغو، موطن كاليفورنيا، التي كانت تحت الحكم المكسيكي، تحمل بصمات التراث الإسباني في العديد من مبانيها القديمة، بالإضافة إلى عناصر معمارية وتزيينية مستوحاة من الأندلس. وتعكس أسماء بعض المواقع والمباني، مثل قلعة ألكازار، هذا التأثير بوضوح. أحضر العديد من المستكشفين الإسبان تراثهم الثقافي والحضاري، بما في ذلك الهندسة المعمارية، وخاصة النمط المودجاري، إلى العالم الجديد وأمريكا. كما نقلوا اللغة العربية، التي لا تزال مستخدمة في أسماء ومصطلحات عديدة في المستعمرات الإسبانية، مثل المكسيك والولايات المتحدة لاحقًا، حيث كانت المكسيك بمثابة بوابة للتأثيرات الإسبانية. ويظهر هذا التأثير في كلمة "إل" (El) التي تعني "ال" باللغة العربية، والتي لا تزال شائعة في أسماء الشوارع في الولايات الجنوبية. كما استُقيت أسماء مدن عربية مثل "ميدينا ديل كامبو" و"ميدينا دي ريوسكو" و"ميدينا سيدونيا" من أسماء مدن عربية مقدسة، وقد هاجر سكانها الأصليون إلى الولايات المتحدة خلال موجة الهجرة الأوروبية في القرن السابع عشر. كان للثقافة العربية والإسلامية، التي حكمت معظم إسبانيا لأكثر من 700 عام، تأثير كبير على العديد من المستكشفين الإسبان، واستمر هذا التأثير لعدة

عقود بعد رحيل العرب من إسبانيا. ونُقلت الأساليب المعمارية والعناصر الزخرفية الإسلامية/الأندلسية إلى العالم الجديد من خلال البعثات والاستكشافات الجغرافية.

كانت جزر الكناري محطة مهمة في طريق الرحلات إلى أمريكا، كما أنها كانت بمثابة مركز انطلاق للهجرة ونشر الثقافة عبر المحيط الأطلسي. وبسبب كثرة عدد النجارين والنحاتين والحجارة الذين أنشأوا ورش عمل لمزاولة مهنهم، تأثرت الثقافة هناك بشكل كبير بالفن المودجاري. كما اشتهرت الجزر بصناعة الأسقف الخشبية والأخشاب الملونة، والتي أثرت بشكل كبير على العالم الجديد. سمحت الكنيسة الإسبانية، بدءًا من فترة أسقف خيمنيز دي رادا بإدراج بعض العناصر الإسلامية في دور العبادة المسيحية، مثل النقوش العربية التي تحمل اسم الله وبعض الآيات القرآنية. فعلى سبيل المثال، نجد نقوشًا عربية في كنيسة سانياغو ديل أرابال في توليدو (القرن 13)، وحسناء المطر في توليدو، وكنيسة سان خوان دي لوس ريس في توليدو، وسقف كنيسة سانتا ماريا دي لا موتا، الذي صممه يوسف بن مالك. ومن بين هذه النقوش الشهادة التي تقول: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". وبعد فترة من التفاعل المعماري، تطور استخدام الخط العربي إلى أشكال أخرى.(12)

صاغ مصطلح "النمط المودجاري" خوسيه أمادور دي لوس ريوس عام 1859م، في سياق نظرية الأنماط الفنية وتأكيد التمايز بين الفنون الوطنية الأوروبية المختلفة. وبعد فترة وجيزة، في عام 1919م، نشر مانويل غوميز مورينا كتابًا عن الكنائس الموزاربية التي شُيِّدت في القرنين العاشر والحادي عشر، مُعرِّفًا نمطًا إسبانيًا آخر مُكمِّلًا: النمط الموزاربي. ويتلخص هذان النمطان، اللذان ظهر أحدهما بعد الآخر، في إدخال عناصر إسلامية في الفن المسيحي في شبه الجزيرة الإيبيرية، والذي كان يُنظر إليه على أنه متميز عن التقاليد الثقافية الإسبانية والغربية. وقد خضعت الدراسات الأولى حول النمطين المودجاري والموزاربي للنقد والتحليل لاحقًا من قبل كامون أزنار (1963م) وإي.بانغو (2001م)، واصل باحثون مثل لوبيز غوزمان وبوراس وبافون مالدونادو دراسة النمط المودجاري في مناطق الأندلس وأراغون وكاستيا على التوالي.

كان كل من أمادور دي لوس ريوس وغوميز مورينا يرغب في تفسير وجود عناصر إسلامية في الفن المسيحي في شبه الجزيرة الإيبيرية. ومع ذلك، اقتصرت العناصر التي أُخذت في الاعتبار على بعض عناصر الزخرفة (مثل الأقواس المتداخلة

والأقواس المُدببة والنقوش الهندسية والنباتية)، والمواد المستخدمة (الطوب والسقوف الخشبية والجبس)، وادعاء مشاركة حرفيين موديجاريين. لا يُشير نوع المواد أو الزخرفة إلى وجود حرفيين موزاربين أو موديجاريين. فقد كان اختيار المواد والزخرفة من اختصاص الراعي، وليس الحرفي. وبالمثل، لم تكن كل من الطوب والسقوف الخشبية من استخدامات الهندسة المعمارية الإسلامية حصراً؛ بل إن بعض أنماط الزخرفة فقط كانت ذات أصول إسلامية.

من المهم التذكر أن المعالم الأندلسية، مثل جامع قرطبة الكبير وقصر الحمراء، حظيت بإعجاب كبير في الممالك المسيحية خلال العصور الوسطى. ولذلك، لم يكن من المدهش العثور على قباب مُضلّعة، مثل تلك الموجودة في قاعة المصلين في جامع قرطبة، في كنائس رومانسية مثل كنيسة سان ميغيل في ألمازان (ساريا) وكنيسة القبر المقدس في توريبس ديل ريو وكنيسة سانتا ماريا دي إيونا (نافارا)، بالإضافة إلى دير سانتا ماريا دي أرمينتيرا (بونتيفيدرا). تم دمج عناصر مختلفة من العمارة الأموية في المباني الدينية التي شُيِّدت في مملكة أستورياس وليون خلال القرنين العاشر والحادي عشر، مثل الأقواس المدببة ذات اللونين الأحمر والأبيض، والإطار المربع المحيط بالأقواس، والأسوار ذات الدرجات المتدرجة، والزخارف المنحوتة، والتي غالبًا ما تحمل دلالات رمزية. وكانت معظم هذه المباني غير مرتبطة بالمجتمعات المسلمة المهاجرة. ومن الأمثلة البارزة على ذلك كنائس سان سالفادور دي فالديوس (أستورياس)، وسانتا ماريا دي ليبينا (كانتابريا)، وسان ميغيل دي إسكالادا وسانشياغو دي بينالبا (ليون)، وسان باوديلو دي بيرلانغا (سوريا)، وسان سيبريان دي مازوتي (فالادوليد).(13)

نتائج الدراسة :

1. التغيرات الديموغرافية في الأندلس: اضطرب التوازن الديموغرافي في المنطقة نتيجة انخفاض كبير في عدد السكان المسلمين بسبب عمليات القتل الجماعي والإبعاد القسري إلى شمال أفريقيا.

2. تدهور الوضع الاجتماعي للمسلمين: تعرض المسلمون للتهميش والتمييز، وفرضت عليهم قيود على لغتهم وملابسهم وممارساتهم الدينية، مما جعلهم أقلية مضطهدة.

3. الإجبار على اعتناق المسيحية: ظهرت فئة "الموريسكيون" الذين حافظوا سراً على هويتهم الإسلامية في مواجهة الاضطهاد، نتيجة إجبار المسلمين على اعتناق المسيحية.
4. تأثير المحرقة: أحدثت المحرقة موجات من الخوف، حيث تم اضطهاد وتعذيب كل من يُشتبه في خروجه عن العادات الإسلامية أو تعاليم المسيحية.
5. تدهور التعليم العربي والإسلامي: فقد سكان الأندلس صلتهم الفكرية والثقافية بتاريخهم القديم مع إغلاق المدارس والمساجد، ونهب المخطوطات العربية والمكتبات.
6. التحول اللغوي والثقافي: أُجبر المسلمون على تبني الثقافة الإسبانية والمسيحية، ما أدى إلى تضاؤل الهوية العربية والإسلامية في المجتمع الأندلسي.
7. هجرة العلماء والمفكرين: هاجر عدد كبير من الكتاب والعلماء إلى شمال أفريقيا والمغرب الإسلامي، حيث ساهموا في إحياء تلك المناطق ونقلوا إليها تراث الأندلس العلمي والثقافي.
8. نشأة المقاومة: على الرغم من الاضطهاد، نشأت ثورات محلية وحركات مقاومة، كثورة الألبوجارات، تعبيراً عن رفض المسلمين للاستسلام والاحتفاظ بهويتهم الدينية والثقافية.

توصيات الدراسة :

1. توثيق تاريخ الأندلس من منظور إسلامي، ودعم الأبحاث التاريخية المتخصصة حول التغيرات الاجتماعية والثقافية التي أعقبت سقوط غرناطة، مع التركيز على المصادر الأندلسية الأصلية.
2. الحفاظ على التراث الأندلسي من خلال إنشاء متاحف متخصصة وأرشيفات رقمية تضم مخطوطات وسجلات وأدوات تعكس الحياة في الأندلس قبل وبعد سقوط غرناطة.
3. تشجيع دراسة المقارنات التاريخية بين تجارب الأقليات الأخرى والمسلمين في الأندلس، للكشف عن أوجه التغير الاجتماعي والثقافي في ظل الظروف القمعية والإجبارية.
4. تشجيع إنتاج الأعمال الفنية والأدبية (مسلسلات تاريخية، أفلام وثائقية، روايات، أفلام سينمائية) التي تسلط الضوء على أحداث الأندلس، وذلك للحفاظ على الذاكرة الجماعية وتعزيز الوعي الثقافي.

5. تشجيع البحوث الاجتماعية والنفسية لدراسة تأثير القمع والإجبار على الهوية الأندلسية، وكيف تم نقل هذه التجربة إلى الأجيال اللاحقة.
6. الاستفادة من تجربة الأندلس لتوجيه السياسات الحالية لحماية الأقليات الثقافية والدينية من الاضطهاد والإقصاء، وتعزيز قيم التنوع والتعايش.
7. تعزيز التعاون الأكاديمي بين الجامعات العربية والأوروبية لإجراء أبحاث معمقة حول تراث الأندلس، ونشر الدراسات المراجعة من قبل الأقران بلغات متعددة لنشر الحقائق التاريخية.
8. تعزيز معرفة الأجيال الشابة بتاريخ الأندلس من خلال إشراكهم في الفعاليات الثقافية والبرامج التعليمية التي تسلط الضوء على تجربة الأندلس، وتؤكد على أهمية الحفاظ على الهوية والقدرة على الصمود.

بيان تضارب المصالـــح:

يُقر المؤلف بعدم وجود أي تضارب مالي أو علاقات شخصية معروفة قد تؤثر على العمل المذكور في هذه الورقة.

الهوامـــــــــــش :

1- مطلق إيمان ، 2012 م ، تأثير الأندلسيين في الجزائر اقتصاديا واجتماعيا ، ص 6.
2-وفاء محروس عطية ، بنية المجتمع في شرقي الأندلس في عصر دولتي المرابطين والموحدين ،مجلة الدراسات العربية ، ص 4093.
3-وفاء محروس عطية ، بنية المجتمع في شرقي الأندلس في عصر دولتي المرابطين والموحدين ،مجلة الدراسات العربية ، ص 4093.
4-أبو عبيد البكري المسالك والممالك، تح: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، بيت الحكمة الدار العربية للكتاب، قرطاج ، ج 2، ص 738.
5- سميرة ناصري ، 2022م ، الحضور الأندلسي في الجزائر و دوره في الموروث الحضاري (1519-1830م) ، ص 10.
6-رينا سعد الرحيلي ، 2025م ، فلسفة التغير في التحولات الاجتماعية قراءة نقدية معاصرة ، المجلد 21 ، العدد 4 ، ص 113.
-7 Malpica, A. (2010). Urban life in al-Andalus and its role in social organization and the structure of settlement. Imago temporis: Medium Aevum: 4, 2010, 25-49.

-[8] San José, C. T. (2005). A social analysis of irrigation in Al-Andalus: Nazari Granada (13th-15th centuries). Journal of medieval history, 31(2), 163-183.
9-مختار عمارة ، 2021 م ، التعليم في الأندلس خلال عهد الدولة الأموية (138 - 422هـ / 755 - 1030م) ، العدد 51 ، ص 189.
10-مختار عمارة ، 2021 م ، التعليم في الأندلس خلال عهد الدولة الأموية (138 - 422هـ / 755 - 1030م) ، العدد 51 ، ص 189.
11-علي محسن سلمان ، أرض التسامح والتعايش الديني ، مجلة كلية التربية الأساسية ، المجلد 20 ، العدد 82 ، ص 397.
12-وائل خطاب. (2025). الفن والعمارة الإسلاميان: المسار من الأندلس إلى أمريكا. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، 43(171)، 237-279.
-[1]3Capilla, S. (2020). Art and architecture. In The Routledge Handbook of Muslim Iberia (pp. 460-485). Routledge.